قراءة تأويلية في أم الكتاب

دكتور محمد أقين[١]
دكتور عبد الصمد ورلي[٢]
دكتور يوسف توبياي[٣]

ملخص البحث

إن سورة الفاتحة أو أم الكتاب من السور التى أبدع كثير من المفسرين فى الإبحار فيها تفسيرًا وتوضيحًا لإعجازها ، سواء كان تفسيرها ضمن تفسير القرآن الكريم كله ، أو تفسيرها وحدها (٤) . وتهدف هذه القراءة إلى وقفة تأملية مع هذه السورة ، فى محاولة للتفتيش عن جواهر مدلولاتها ، مع عدم استخدام مناهج لغوية شتى ، مثل البنيوية والسيميولوجية والأسلوبية والتلقي ... وغير هذه المناهج ، التي تركز جهودها على الخطاب اللغوي والمتلقي .

Abstract

Surah Al-Fatihah, also known as “ümmül kitab” , is the most interpreted and analyzed surah throughout the history from many exegetes and from different perspectives. This kind of analyses uses different linguistic methods like structuralism, semiotics and literary style to find out new meanings in order to understand Allah’s request

مقدمة

لا شك أن تفسير سورة الفاتحة قد تعددت بتعدد التفاسير التي انتشرت في العالم الإسلامي ، بين القديم والحديث ، وبتعدد الألسنة والكلام ، وبتعدد الأجناس البشرية ، ما بين عربي وأعجمي ، وقد رأينا أن نكتب موجزًا لقراءة جديدة لسورة الفاتحة ، وإن كنا لا نعدها الأحسن أو الأفضل ، ولكنها إسهام المقل في رؤية جديدة في كتاب الله

(١) أستاذ مساعد في كلية الإلهيات ، بجامعة أنقرة .
(٢) أستاذ مساعد في كلية الإلهيات ، بجامعة بايبورت .
(٣) أستاذ مساعد في كلية الإلهيات ، بجامعة بايبورت .
(٤) ومن ذلك : إعجاز البيان في كشف باب أسرار أم القرآن للقونوي (٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) والرسالة السعدية فى تفسير سورة الفاتحة لسعدي باشا (٩٤٥هـ = ١٥٣٩م) ، وتفسير فاتحة الكتاب للقزوينى (٩٦٦هـ = ١٥٥٨م) .

– عز وجل – وبخاصة في سورة الفاتحة ، وقد قسمناها على مرحلتين اثنتين ، أو مقالتين ، وهذه هي المقالة الأولى منهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*مَـالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيـَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيـَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بها تُفتح كل المغاليق ، ويُسهل كل صعب ، ويضيء كل مظلم ، ويلين كل عسير . وكما كانت هذه الافتتاحية هي المفتاح الذي يلج به المسلم كتابه المقدس ، كانت كذلك مفتاحا لجميع الأعمال ، ما قَلَّ منها وما كثُر ، ما صغُر منها وما كبُر . ولأن القرآن الكريم يَجُبُّ ما ألفه العرب في جاهليتهم من الأخلاقيات الذميمة ، قرَّع الله – سبحانه وتعالى – أسماعهم بهذه الافتتاحية ، التي تمحو كل ما كانوا يفتتحون به أعمالهم ويقسمون به ، من قبيل : بسم اللات وبسم العزى (٥) أو غيرها ؛ لتتحول وجهتهم من التعلق بالفاني إلى رجاء الباقي .

وفي اقتران لفظ (اسم) بلفظ الجلالة (الله) ، دون أيٍّ من أسمائه الحسنى ، مسائل عدة : **الأولى** ، لَفْتُ انتباه العرب إلى أن اللات والعزى التي يتعلقون بها ، ليست هي الخالقة والموجِدة للأشياء والأعمال التي يستفتحونها بهما . ومن ثم عليهم أن يستفتحوا أعمالهم باسم خالقها ومنشئها الأوحد، وهو (الله)؛ إذ كيف بمن لم يخلق أن يُفْتَتَحَ باسمه ، أو يُترجى فيه ، أو يُطلب منه ، وهو العاجز حتى عن حماية نفسه .

و**الثانية** : أن القرآن الكريم قد جاء بما يثبت معرفة العرب بـ(الله) – عز وجل– في أكثر من موضع ، منها قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(سورة الزخرف : ٩).

وإنما كانت عبادتهم للأصنام تقربًا منه عز وجل : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة الزمر : ٣) .

ومن ثم ، فإن اقتران الاسم بـ(الله) يلفت انتباههم إلى أن الله – تعالى – لا يحتاج إلى وساطة بينه وبين خلقه في عبادته ؛ فإذا كنتم موقنين بالله – عز وجل – حق اليقين ، فعليكم بعبادته ومناجاته هو مباشرة ، غير ما

(٥) الزمخشري : الكشاف ، ترتيب وضبط وتصحيح محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، الجزء الأول : ١٣ .

تدعون من دونه . وهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة : ١٨٦) .

ألم تأكل الأَرَضَةُ كل ما كتبه كفار قريش في الوثيقة التي علقوها على جدار الكعبة ، من مخاصمة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ومن تبعه من عشيرته ، وتركت (باسمك اللهم) ؟! .

والثالثة : أن لفظ الجلالة (الله) جامع لكل الصفات والأسماء ، وصدارته في البسملة يعني أن كل من يتوجه إليه في عمل من الأعمال الدنيوية أو الأخروية مفتتحًا بهذا الاسم (الله) ، مجاب بأمر الخالق ومشيئته ؛ فمن افتتح بها أعمال الرزق رُزِقَ ؛ لأنه الرزاق ، ومن افتتح بها الدعاء أُجيبَ ؛ لأنه السميع العليم ، ومن افتتح بها رجاء الله في طلب القوة والإعانه أُعطي ؛ لأنه القوي ، ومن طلب به الرحمة رُحِمَ ؛ لأنه الرحمن الرحيم ... وقس على هذا . ومن ثم فإن مجيء لفظ الجلالة (الله) مقدمًا على (الرحمن الرحيم) ، يُعد من سبيل تقديم الاسم العلم الذي هو أصل على الصفة (٦) .

و**الرابعة** : أن لفظ الجلالة (الله) فيه من الرهبة والهيبة والجلال والخشية ، ما توجل منه القلوب ، وتستضيء به الأبصار ، وتنحني له الجباه ، وتخشع له الأصوات ، وتسمو به الروح . وكل هذا ؛ لأنه الاسم الجامع لصفات الجلال والجمال . أضف إلى هذا ، أن العرب كانوا ينطقون به (الله) قبل الإسلام ، وقد ورد كثيرًا في شعرهم . يقول أحدهم :

مَن يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وسائِلُ اللهِ لا يَخيبُ(٧)

والخامسة : أن الله – عز وجل – جاء باسم ذاته الدال عليه وحده ، لا على غيره ؛ لأن للعباد حظ من أسماء الله الحسنى ؛ فتستطيع أن تصف رجلًا بأنه رحيم ، أو عالم ، أو رؤوف . لكن يكمن الاختلاف في نسبة الاتصاف بهذه الصفات ؛ فالحق –سبحانه وتعالى – يتصف بهذه الصفات ، ويختص بهذه الأسماء مطلقًا . أما الخلق فاتصافهم بهذه الصفات ، يقع في إطار النسبية والنقص ، فهم متفاوتون فيها . ولأجل كمال المعنى جاء لفظ الجلاله (الله) ، الْعَلَمُ الذي لا يُطلق إلا على المعبود بحق .

فإذا كان هذا ما يخص العرب حين نزول القرآن الكريم ، وقد صدمهم القرآن بهذه الافتتاحية (بسم الله) ، فكيف بأقوام ينتسبون إلى العرب والإسلام – قالبًا لا قلبًا ، وجسدًا لا روحًا ، وبعد مرور قرون عدة على نزول الوحي – يفتتحون بغير (بسم الله) ، فيقولون : (باسم الأمة ، باسم الشعب ...) ؟!. ومن هنا كان حقًّا على الله

(٦) وانظر بقية التفاصيل : الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤م ، ١/ ٥٩ .

(٧) ديوان عبيد بن الأبرص ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م :٢٢ .

الذي ابتعدوا عن اسمه ، وافتتحوا ندواتهم ومؤتمراتهم بغيره ، ألا ينصرهم في الدنيا ، فضلًا عن الآخرة . ألم يقل النبي ، صلى الله عليه وسلم : "كل كلام لا يُبدأ في أوله بذكر الله ، فهو أبتر ". أي مقطوع وناقص ؟!(٨) .

وكان الخالق – عز وجل – رحيمًا بنا ، إذ حررنا من التيه والضلال والتخبط وراء الشيطان والنفس والهوى ، وأدخلنا ساحة التوحيد ، وأنعم علينا بمعرفته والتعلق به ، وترْك ما دونه من مخلوقات تُخلَق ولا تَخلُق ، تستعين ولا يستعان بها ، تَطلُب ولا يُطلب منها ، بل تفنى ولا تبقى . هذا التحرر الذي اتضحت أولى خطواته على أعتاب هذه الافتتاحية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ لتتعلق به – سبحانه – الأفئدة ، وتهوى إليه النفوس ، وتشرئب إليه الأرواح ، وينسجم بل ويستجم الكيان الإنساني بكل مكوناته عند النطق بهذه الافتتاحية، التي تعد مرفأ ترسو على شاطئيه سفن النجاه ، وينجو بين دفتيه كل غريق ، ويطمئن بها كل قلق وحيران ، ويشتمل بها كل عار. إنها ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، التي يَترجى بها كل داع، ويأمل بها كل طالب ، ويأنس بها كل مستوحش .

وأما (الرحمن الرحيم) ، واقتران البسملة بهما دون غيرهما من الأسماء الأخرى ، ففيهما لطائف : **الأولى** " أن العبد الذي يفتتح عمله بـ(بسم الله) ، ينتظر أن تُقضى حوائجه من قِبَلِ الله ، الذي ينطق باسمه . ومن ثم ، فهو في حاجة إلى التعرف على صفات هذا الخالق ، التي تُطَمْئِنُ المخلوق ، فتأتي صفة الرحمة في أعلى تجلياتها بتجاور داليّ (الرحمن الرحيم).

الثانية : أنه إذا قيل: ما العلاقة بين صفة (الرحمة) وقضاء الحوائج ؟ قلنا : إن من سمات الرحيم – تعالى – إضفاء الرحمة على كل المخلوقات في الحياة الدنيا ، وبخاصة المؤمنين به من بني البشر؛ ألم يرزق الله من طلب منه الرزق ؟ ألم يشف المريض إذا استشفاه ، ويُجِبِ الداع إذا دعاه ، ويَفرح بتوبة التائب إذا تاب إليه ؟ ألم يقل في كتابه الكريم : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٦) ؟! . كل هذه الأمور وغيرها كثير ، تندرج تحت قضاء الحوائج التي يترجاها العبد بهذه الافتتاحية ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ

(٨) سنن النسائي ، قدم له الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م ، كتاب (عمل اليوم والليلة) رقم : ١٠٢٥٨ . وقد ورد هذا الحديث بألفاظ أخرى ، ففي سنن أبي داود (كل كلام لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم) سنن أبي داود ، تحقيق وضبط شعيب الأرنؤوط ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م ، كتاب (الأدب) ، باب (الهدى في الكلام) ، برقم (٤٨٤٠) . وفي سنن ابن ماجة (كل أمر ذي بال لم يُبدأ فيه بالحمد أقطع) . سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، كتاب (النكاح) ، باب (خطبة النكاح) ، رقم ١٨٩٤.

الرَّحِيمِ ﴾ . ومن ثم ، كان اتصاف الباري – سبحانه وتعالى – بالرحمة في البسملة طمأنة للعبد ، ودفعًا له إلى التطلع إلى رجاء مولاه ، والطمع فيما عنده ، والتضرع إليه (٩) .

والثالثة : أننا إذا كنا قد ذهبنا من قبل إلى أن لفظ الجلالة (الله) يشمل كل الأسماء والصفات ، وأن المفتتح باسمه ينال ما عند الله بإذنه وبحسن طاعته ، فإن اقتران الرحمة هنا بالله – عز وجل – يمكن أن تطلعنا على سر عظيم ، يتمثل في أن (الرحمة) هي البوتقة والمعين الذي تنبعث منه كل الصفات ، وتدور في فلكه كل الأسماء الحسنى .

وهنا يبدو لنا في افتتاحية البسملة عناصر ثلاثة : الرجاء في قضاء الحوائج ، والتعلق بـ(الله) ، والرحمة . وبالترابط اللغوي البنيوي بين هذه العناصر ، يمكن أن نفهم أن الله يقضي حوائج المفتتح بهذه الافتتاحية برحمته ؛ فيغفر للمسيء الراجي مغفرته برحمته ، ويجيب المضطر ويكشف عنه السوء برحمته ، ويعطي السائل برحمته ، ويقبل التائب برحمته ، ويمهل الغافل برحمته .

فإن قيل : إذا كانت صفات الجمال من الرحمة بمكان ، فكيف بصفات الجلال التي يشملها لفظ الجلالة (الله) بما تشعه من الخوف والوجل والخشية ، وبما تحمله من وعيد وانتقام وغير ذلك من المعاني ؟ قيل : إن صفات الجلال بما تحويه من معان لهي أعلى درجات الرحمة بالبشر: مسلميه وغير مسلميه. فعندما يصف الباري نفسه بـ(شديد العقاب) مثلا ، فإلى أي نوع من البشر تتجه هذه الصفة؟ أليست للمذنبين، والفاسدين، ومرتكبي الجرائم، والعاثين في الأرض فسادا، وباتصاف الخالق بهذه الصفة، يرجى ردعهم وإخافتهم، ويؤمل عدولهم عن الغي ، وكفهم عن الفساد والإفساد ؛ فينعم البشر بالسعادة ؟! . لذا يمثل اسمه الحسن (شديد العقاب) أعلى درجات الرحمة بالخلق .

وعندما يصف ربنا تبارك وتعالى نفسه بـ(المنتقم) أو (الجبار) ، ألا تتوجه هذه الأسماء بالضرورة – في كل زمان ومكان– إلى كل ظالم ، ومتجبر ، وطاغية ، ومتكبر ؟!. ومن ثم ، فإن وعيد الله – سبحانه وتعالى – لهم ، وإخافته إياهم ، بما يعد زجرًا ومنعًا لهم عن التوحل في هذه الرذائل؛ ليطهر منها المجتمع الإنساني، لهو قمة الرحمة ببني البشر.

وفي انبثاق الأسماء الحسنى من بوتقة الرحمة ، اقرأ معي قول الله عز وجل : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر: ٢٢ – ٢٤) . هل تأملتَ صدارة الرحمة للأسماء الحسنى ؟ !.

(٩) وفي رأينا ، أن (الرحمن الرحيم) هنا ، تخص المؤمن في قضاء حوائجه ، وتُستبعد غير المؤمن الذي لا يبدأ أعماله ، ولا يطلب حوائجه بها .

والرابعة : أن العرب– وهم المخاطَبون الأوائل بهذا التنزيل– كانت تنقصهم الرحمة ، وتتجافى عنها جنوبهم، وتخلو منها أفئدتهم؛ لذا لم تصطبغ بها أعمالهم، ولم تتزين بها أقوالهم؛ فوأدوا البنات ، واستعبدوا الصغار ، وشنوا الحروب لأتفه الأسباب . وبانتزاع الرحمة منهم ، انتفت عنهم كثير من الأخلاق . ومن هنا نستطيع أن نفهم ، كيف جاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم هذه الأخلاق . وربما تجلت حكمة الله – سبحانه وتعالى – في ألّا يجعل صفة الرحمة بمثابة الشيء العادي ، الذي ربما لا يلتفتون إليه كثيرًا ، وإنما وضعه في هذه الافتتاحية ، التي تهيمن على حياة من يُنعم الله عليه منهم بنعمة الإسلام في حله وترحاله ، وفي يقظته ونومه ، وفي سروره وحزنه ، بل في أطوار حياته كلها ؛ فتتعلق بها القلوب ، وتتلذذ بها الآذان ، وتُرطب بها الألسنة.، ومن ثم تبدو جلية في الأقوال والأعمال .

ومن هنا كانت حكمة الباري – سبحانه وتعالى – أن يلفت انتباه العرب إلى وجوب التحلي بهذه الصفة ، وأن يخلعوا عباءة القسوة ، ويهدموا الغلظة القلبية والفظاظة الروحية بمعول الرحمة والشفقة . ولما كان في علمه – سبحانه وتعالى – أن بني البشر يحتاجون في أطوار حياتهم الإنسانية إلى مَن يقودهم ؛ ليتسنوا ويتأسوا به ، جعل سمة الرحمة من أهم سمات قائدهم المرسل ونبيهم الخاتم ، محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فقال فيه : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٩) . فاقتران البسملة بالرحمة واتصاف نبيهم بها ، يجعلهم بلا شك يتبعونه ، مطمئنين إلى ما يفعلون ، سعداء بما أوتوا من نعمة الإسلام ، مهتدين بهدي ، كانوا لا يتوقعونه أبدا . ولم يكتف ، صلى الله عليه وسلم ، بأن يتصف هو وحده بالرحمة، بل حض المؤمنين على الاتصاف بها، فقال: (مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ) (١٠) .

والخامسة : أن الرحمة مشتقة من الرحم . وفي هذا ما يلفت الانتباه إلى وجوب نبذ الفرقة والتقاتل والتناحر فيما بينهم ، وترك الاستعباد ، وخلع الخصومة والأحقاد من قلوبهم ؛ لأنهم في حقيقة الأمر ، أتوا من رحم واحد ، فهم في الأصل أخوة (١١) . يقول – سبحانه وتعالى – في الأخوة الإنسانية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات : ١٣) .

وخص – سبحانه وتعالى – مَنْ هُدِيَ إلى الإسلام منهم ، فقال في أخوة الدين : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا

(١٠) صحيح البخاري ، محمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة السلفية ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم : رقم : ٦٠١٣ .
(١١) للأخوّة أنوع متعددة : منها الأخوة في الإنسانية ؛ فالبشر من آدم وحواء ، والأخوة في الدين ، والأخوة في الوطن ، والأخوة في النسب .

حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آل عمران:١٠٣) . وفي الرحمة بمعنى التواصل والتواد ، يقول عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه : إن النبي ، صلى الله عليه وسلم قال :" قال الله : أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته" (١٢) .

ومن هنا ، فإن الإسلام هو الذي ردهم إلى ما كان ينبغي أن يكونوا عليه . ولما كان هذا الأمر من الأهمية بمكان ، لأنْ يبدأ العرب حياتهم بتطهيرها من دنس القسوة ، اتضحت حكمة الباري ، في أن يأتي بخُلق الرحمة في هذه الجملة الافتتاحية الباهرة المبهرة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ كي لا تفارق أسماعهم ، ولا تجف بانقطاعها ألسنتهم .

إن سيطرة دال (الرحمة) على هذه الجملة الافتتاحية المعجزة قد زادها إعجازًا على إعجازها ، بما شعه من معان إنسانية ، كان العرب في أشد الاحتياج إليها ، وبخاصة في بداية حياتهم الجديدة . وليس هذا فحسب ، بل كان لهذا الدال (الرحمة) أضواؤه على جوانب سورة الفاتحة كلها .

ومن هنا ، يمكن القول: إن هذه الجملة الافتتاحية بما هيمن عليها من (الرحمة) ، لم يقتصر دورها على مجرد افتتاح الأعمال بها ، بل امتد إلى محاولة فهم سورة الفاتحة بأكملها. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا : محاولة فهم القرآن الكريم كله .

وإذا أردتَ أن تعاود النظر في الجملة الافتتاحية التي تمثل الآية الأولى في كتاب الله عز وجل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فمتع عينيك ، ورطب لسانك ، وقبل هذا وبعده نشط لبك ، وتأمل بلاغتها في بنائها على بنية المجاز ، المتمثل في حذف المتعلق به الجار والمجرور (بسم الله) . وإذا أردت أن تتحسس علل الحذف ، أدركت أن السياق يقتضي التوجه إلى الاهتمام بالجار والمجرور ، بدلا من المحذوف المتَعَلَّق به ، سواء أكان هذا المحذوف اسما أم فعلا ؛ فإن قلتَ :بسم الله (ابتدئ) أو (ابتدائي)، فالاهتمام لا يتوجه إلى المحذوف؛ لأنه سيُنطقُ به من قِبَلِ المتكلم ، سواء أكان باسم الله أم بغيره . ولرحمة الباري بنا في تحررنا إلا منه – سبحانه وتعالى – بدأت الآية الكريمة بالمهتم به (اسم الله) ؛ لتجُبَّ ما كان يُفتتح به من أسماء آلهتم (١٣) .

(١٢) سنن الترمذي ، تعليق محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ، بدون تاريخ ، كتاب (البر والصلة) ، باب (ما جاء في قطيعة الرحم) ، رقم (١٩٠٧) .

(١٣) الزمخشري ، الكشاف : ص ١٠٠ – ١٠١ . وقد جعل الزمخشري المتعلق به متأخرا . وانظر في المتعلق المحذوف : ابن عاشور، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٨٨٤م : ص١٤٦ – ١٤٧ .

ثم بمعاودة النظر مرة أخرى في ﴿الرحمن الرحيم﴾ ، تجد أن الوصف الأول على وزن فعلان ، والثاني فعيل ، وهما مشتقان من الرحمة . وبتعدد ألوان الصيغ في المعنى الواحد، نضطلع على سر عظيم من أسرار الإعجاز القرآني : اللغوي والدلالي (١٤) .

وعلى هذا النحو ، خاطب – سبحانه وتعالى – العرب ، فوجدوا أنفسهم ، وقد قُرِعت آذانهم بخطاب لم يألفوا أسلوبه من قبل . ومع أنهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان ، تحجرت قرائحهم وجفت ألسنتهم عن مجاراته ، رغم معرفتهم بالألفاظ ومدلولاتها ، فأنَّى لهم أن يأتوا بمثل هذا التركيب الذي يحمل لهم خيري الدنيا والآخرة ؟ .

والآن نحن على أعتاب سورة الفاتحة ، وقبل خوض غمار الإعجاز فيها ، نتعرف أولا على المدلولات التي ضمتها الآية الافتتاحية ؛ ليتسنى لنا – بعد ذلك – إيضاح العلاقة البنائية بين هذه الآية الافتتاحية وسورة الفاتحة نفسها . وبالتأمل يدرك أن البسملة دارت حول مدلولين : المدلول الأول (الوحدانية) ، المتمثل في لفظ الجلالة (الله) عز وجل ، والثاني مدلول (الرحمة) ، المتمثل في (الرحمن الرحيم) .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

بهذه الآية الكريمة ، تُثَنَّى سورة الفاتحة ، بعد البسملة (١٥) . وتُستهل الآية الشريفة بدال (الحمد) . والحمد يعني الثناء والمدح ، والاعتراف بالجميل ، والإقرار بالنعم . وفي تقديم لفظ (الحمد) معنويًّا (١٦) على لفظ الجلالة (الله) نكتتان :

(١٤) يقول الزمخشري : وفي (الرحمن) من المبالغة ما ليس في(رحيم).انظر : الكشاف : ص١٠٨ . وقد يتفق هذا الطرح في وصف غير الله بالمشتقات المختلفة ، من صيغ المبالغة ؛ فقد ذهب البلاغيون إلى أن صيغ المبالغة ، تُعامل – في اتصاف الحق سبحانه وتعالى بها – معاملة الصفات المشبهة ؛ لدلالة الأخيرة على الثبوت دائما ، بعكس دلالة الأولى (صيغ المبالغة) التي تدل على التفاوت فيمن يتصف بها . ومن ثم لا يجوز لنا أن نقول : إن الباري عز وجل يتصف بهذه الصفة أكثر من هذه ، أو أن هذه الصيغة تدل على المبالغة في الوصف أكثر من تلك ؛ لأن اتصافه سبحانه وتعالى بكل صفاته هو اتصاف مطلق ، وليس نسبيا . انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م : ١ / ٥٠٧ – ٥٠٨ ، والسيوطي ، الإتقان في علوم القرآن : تحقيق شعيب الإرنؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، ص٦٠٤ – ٦٠٥ .

(١٥) هذا إذا اعتمدنا المذهب الشافعي ، الذي يَعُدُّ البسملة آية من كل سورة . أما المذهب الحنفي ، فلا يعدها آية .

(١٦) قلنا معنويًّا؛ لأن التركيب اللغوي مستقيم، حسب النحو التقعيدي: مبتدأ معرفة حقه التقديم ، وخبر شبه جملة حقه التأخير . ومع ذلك ، فإن الإتيان بالأصل اللغوي ، لا يخلو من بلاغة .

الأولى أنه إذا أقررنا أن هناك تقديمًا وقع بالفعل ؛ فلأن الحمد من المعاني التي كانت تدور على ألسنة العرب قبل الإسلام (١٧).

ومن ذلك قول الأعشى :

وَأَحْمَدْتَ أَنْ أَلْحَقْتَ بِالأَمْسِ صِرْمَةً لَهَا غُدُرَاتٌ واللَّوَاحِقُ تُلْحَقُ(١٨)

ويقول طرفة بن العبد :

والمَجْدُ نُنَمِّيْهِ وَنُتْلِدُهُ والحَمْدُ فِي الأَكْفَاءِ نَدَّخِرُهْ (١٩)

ويقول النابغة الذبياني :

عَلَوْتَ مَعَدًّا نَائِلاً وَنِكَايَةً فَأَنْتَ لِغَيْثِ الحَمْدِ أَوَّلُ رَائِدِ(٢٠)

ونجد هذا المعنى ماثلًا لدى الشعراء العرب بعد الإسلام . يقول نابغة بني شيبان :

مُرِيدُ الذَّمِّ مَذْمُومٌ بَخِيْلُ وَمُعْطِي المالِ مُنْتَجَبٌ حَمِيْدُ(٢١)

ولما كان معنى (الحمد) قريبًا من أذهانهم ، لكنهم يتلفظون به لغير الله عز وجل ؛ ويتقرب به فقراؤهم إلى أغنيائهم ، وعبيدهم إلى سادتهم ، وضعفاؤهم إلى أقويائهم ، جيء بالحمد الذي هو أقرب إليهم أولًا .

فإن قلتَ : ألم يعرف العرب (الله) – سبحانه وتعالى – بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة العنكبوت:٦١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت : ٦٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة لقمان : ٢٥) .

---

(١٧) والحمد في العصر الجاهلي كان للناس من الناس . أي أنهم كانوا يحمد بعضهم بعضًا . انظر : دكتور عودة خليل أبو عودة ، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم . دراسة دلالية مقارنة ، مكتبة المنار ، الأردن – الزرقاء ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م : ص٣٠٥ .

(١٨) ديوان الأعشى، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين ، مكتبة الآداب ، بدون تاريخ : ص ٢٢٣ .

(١٩) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان– بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م : ص ١٣٤.

(٢٠) ديوان النابغة الذبياني ، شرح محمد بن إبراهيم بن محمد الحضري ، تحقيق الدكتور على الهروط ، المكتبة الوطنية ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م : ص٧٩ .

(٢١) ديوان نابغة بني شيبان ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م : ص٣٤ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة الزمر: ٣٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الزخرف :٩) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة الزخرف : ٨٧) ، ومن ثم يتساوى في المعرفة مع (الحمد) ؟ .

وكانوا يعرفون (الله) – تعالى – بيد أن هذه المعرفة كانت تُحَفُّ بأمرين : **الأول** أنها تقتصر على المظاهر الكونية فحسب ؛ فخلق السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وخلقهم هم أنفسهم ، لمن مظاهر تجلي القدرة الإلهية التي لا يمكن لهم أن يدعوا فعلها ، أو حتى مجرد التدخل في سيرها. و**الثاني** وهو مترتب على الأول ، أنهم لم يعبدوا الخالق – سبحانه وتعالى .

أما دال (الحمد) بكل مشتقاته ، فكان متداولا بينهم ، يعيشونه في حياتهم الاجتماعية ؛ بكل ما فيها من طلب للعطاء ، وشهرة بالكرم والبذل ...إلخ . لذا كان لفظ الحمد أقرب إلى أذهانهم .

ولكن الباري – سبحانه وتعالى – أراد أن ينبههم إلى أن الحمد الذي تعرفونه ، لا تضعونه موضعه الصحيح . إنه ينبغي أن يقدم هذا الحمد لله ، خالق من تحمدونهم ؛ فهو الذي وفقهم إلى إسدائهم إياكم ما تحمدونهم عليه . ومن هنا ، فإن بنية التقديم جاءت لاختصاص الله – سبحانه وتعالى – بهذا الحمد دون غيره . وكذا بقية المواضع في آي الذكر الحكيم .

وإن قيل : ما القول في قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الجاثية : ٣٦) ؟ قلنا : إن السياق في آية الجاثية يقتضي هذا الترتيب ؛ فهو سياق حديث عن الكفار ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة الجاثية:٣١– ٣٥).

والمتأمل في هذا المقطع القرآني ، يلحظ أنه أوضح عقاب الله للكفار على ما اقترفوه ، فكان من الطبيعي أن يتصدر لفظ الجلالة (الله) الآية الشريفة ؛ فالله الذي حاسب المسيئين بإساءتهم ، ونجانا من براثنهم ، وأنعم علينا بنعمة الإيمان به ، فلم نتخبط كما تخبطوا ، هذا الإله هو الأحق بالحمد .

وإن قيل : لماذا ورد لفظ الجلالة (الله) في افتتاح سورة الفاتحة ، بعدما ذُكر في البسملة ، وبخاصة أنه قُرِنَ بالحمد ، والحمد يُحمد به ذو النعم ، فنقول : الحمد للرازق أو المنعم أو المعطي أو المانح ...إلخ ؟ أي : ألم يكن من الممكن أن يأتي اسم من أسماء الله الحسنى يتوافق مع معنى الحمد ؟

وقد يفهم أن الحمد يختص بسمات العطاء والمنْح ، التي كثيرًا ما تتضمنها صفات الجمال في الخالق – سبحانه وتعالى – بعيدًا عن صفات الجلال . وبالتأمل يدرك أن الأمر على خلاف ذلك . فالحمد يطلق لصفات الجمال وصفات الجلال . فإن قيل : كيف نحمد منتقمًا أو شديد العقاب أو جبارًا ؟

قلنا: إن صفات الجلال تنال كل من يخالف النواميس الإلهية في الكون؛ من ظالم وفاسد ومفسد ومتجبر ومتكبر ...إلخ . أي أن هذه الصفات تتدخل لصالح البشرية ، ومن ثم استقامة الحياة على وجه الأرض . عندما تسمع أن الحق – سبحانه وتعالى – انتقم من أحد الطغاة ، ألا تراك تقول على الفور : الحمد لله ؟!

ولما كان الحمد يطلق على مظاهر تجلي القدرة الإلهية على البشر بمتضمنات سمات الجمال والجلال ، جيء بلفظ الجلالة (الله) ، المتضمن لكل الصفات . علمنا الله وإياك ، ورزقنا حسن الفهم وحسن العمل .

وأما النكتة **الثانية** ، فإننا إذا لم نقل برأي التقديم لدال (الحمد) على لفظ الجلالة (الله) ، فعلينا أن نتأمل دال (الحمد) بربط هذه الآية بنيويًّا بافتتاحية (البسملة) ؛ لنجد أن لفظ الجلالة (الله) في البسملة هو الذي تقدم على دال (الحمد) في الآية الثانية . وانطلاقا من هذا التحليل البنيوي ، تكون اللحمة اللغوية هكذا : (الله ــ الحمد ــ لله) .

وها نحن قد وصلنا إلى هذه الحقيقة النورانية ، التي امتزج فيها الحمد والثناء بالوحدانية الحقة ، التي تتجلى أيديها على العباد بالنعم ، وتستوجب أن يقر العباد — كل العباد — لها بالحمد والثناء والشكر الدائم . وعليك أن تتأمل التجلي الأول للحمد ، وهو ينطلق بداية من الوحدانية في البسملة ؛ الحمد لله على أن حررنا من غيره ، وعرفنا به كي نبتدئ أعملنا باسمه ، راجين قضاء حوائجنا ، متعلقين به لا بغيره ، متوكلين عليه ، راضين بقضائه ، الحمد لله على أن وصف نفسه بالرحمة (الرحمن الرحيم) ، صفة مطلقة لا تنفك عن ذاته أبدًا؛ فهو رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، أو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

ومن جملة العظمة ، يأتي التجلى الثاني في الآية الثانية ؛ فالحمد لله على أنه رب للعالمين ، كل العالمين ؛ لم يتطرد من ابتعدوا عنه من تحت سمائه ، لم يحرمهم من رزقه بسبب معصيتهم له ، لم يحاسبهم في الدنيا إلا بقدر ما يكونون به عظة لغيرهم ، ولم يغلق باب التوبة في وجوههم ، بل أغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة (٢٢).

ولو عرف الكافر حقيقة هذه الآية ، لحمد الله وأثنى عليه ليل نهار ، حتى لو لم يعبده ؛ لكونه ربًّا للعالمين . فمن هذه الربوبية ، حظي بمتاع الدنيا ، وإن خسر الآخرة . وبهذه الربوبية ، عومل أفضل المعاملة — بالرغم من كفره — من العابدين لله عز وجل ، الطائعين لأنبيائه ، فلم يُبخس حقًّا ، ولم يُجبر على اعتناق دين من الأديان .

٢٢ () ألم ينعم – سبحانه وتعالى – على المجتمعات الكافرة ، بنعم لا تعد ولا تحصى ؟ ! ألم يتقدموا على المسلمين في كثير من المجالات ؛ لأنهم أخذوا بأسباب العيش ؟ ! . لكنه – سبحانه وتعالى – وهذا من باب الرحمة أيضًا – لم يربط النعم والرزق بالعبادة .

وفي (الحمد) يقول ثعلب :"الحمد يكون عن يد وعن غير يد ، والشكر لا يكون إلا عن يد" . ويقول اللحياني : "الحمد الشكر" . ويقول الأخفش : "الحمد لله الشكر لله". ويقول الأزهري :"الشكر لا يكون إلا ثناء ليد أوليتَها ، والحمد قد يكون شكرًا للصنيعة ، ويكون ابتداء للثناء على الرجل ، فحمد الله الثناء عليه ، ويكون شكرًا لنعمه التي شملت الكل ، والحمد أعم من الشكر" . ويقول ابن منظور : "والشكر : مثل الحمد إلا أن الحمد أعم منه ، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه ، ولا تشكره إلَّا على معروفه دون صفاته" . ويقول أيضًا : "الشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته" . (٢٣)

وبالتأمل ، يدرك أن ثمة تداخلًا وتكاملًا بين الحمد والشكر ، وأن الاثنين يدوران في فلك التنظير والتطبيق ، أو القول والفعل . وفي الشكر يقول تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ . وروي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه . قالت عائشة : يا رسول الله ! أتصنع هذا ، وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ! أفلا أكون عبدًا شكورًا (٢٤) .

فإذا كان الشكر يناط بالعمل ، والحمد أعم من الشكر كما سبق ، فبالتأمل يدرك أن الحمد لا يجوز لصاحبه أن يقف به عند الثناء باللسان ، بل يدخل في صميم العمل . وهل يعقل أن يحمد العبد ربه حمدا نظريا دون عمل ؟ أي يقول الحمد لله على نعمه ، ويُقصِّر في العبادة ويتقاعس عنها ؟! إذا كان ذلك كذلك ، فما أتعس هذا العبد ، الذي حوّل دينه من العمل إلى القول ، ومن القلب وما يرتبط به من عمل الجوارح إلى اللسان!. وكيف بعبدٍ يحمد الله نظريا بلسانه ، ولا ينفذ هذا الحمد ويتسلل إلى قلبه ، ومن ثم يبدو على جوارحه؟!. إن الناس –كل الناس وربما غير المسلمين – ينطقون بهذه الجملة (الحمد لله) . ولكن هل يُعَمَّرُ الكون بالحمد والثناء النظري ، أم بالعمل والفعل التطبيقي ؟ هل يصير العبد مؤمنا إذا نطق بلسانه الحمد والثناء ، دون العمل والطاعة ؟ !.

إن الإسلام لا يعبأ بالقول قدر اهتمامه بالعمل والفعل ، وعليك أن تنظر في كتاب الله عز وجل ؛ لتجد أن كثيرًا من آياته الكريمة قد ربطت بين الإيمان والعمل من ناحية ودخول الجنة من ناحية أخرى ؛ وكأن العمل هو الجسر الموصل إلى الجنة ، وبتهاوي هذا الجسر ، يصعب على المؤمن التنعم بجنة الخالق سبحانه وتعالى ، وهو

٢٣) يُنظر في هذه المعاني كلها : ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، مادة (حمد) .

٢٤) صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، كتاب (صفات المنافقين وأحكامهم) ، باب (إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة) (٢٨٢٠) .

القائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (سورة يونس : ٩) (٢٥) . فلا تخدعن نفسك بالقول والثناء والحمد النظري ، ولا تتوقف عند هذا الحد ، وإنما عليك بالعمل والطاعة لله عز وجل .

ومن اللطائف الإعجازية ، اقتران البسملة بالحمد في هذا الحيز الضيق لغويا ، المتسع عمليا . ألا ترى أن الإنسان يبدأ عمله بالبسملة ، ثم ينهيه بالحمد ؟! . وما يزيد من إعجازٍ في تلك اللطيفة ، هو تشريف الآيتين بلفظ الجلالة (الله) (بسم الله – الحمد لله) ، وبينهما تأتي الأعمال . وهذا يطلعنا على سر عظيم ؛ فحواه أن الأعمال كل الأعمال : القولية والعملية ، الظاهرة والباطنة ، الدنيوية والأخروية ، ينبغي أن تكون لله عز وجل ؛ فهي تبدأ باسمه وتنتهي بحمده ، فمنْ يتأمل ؟ .

ومن دلائل العظمة الإلهية ، وتجلي الإعجاز في الآيات القرآنية ، تراوح الآيتين بين لفظي (الله – رب) . الله عَلَمٌ في ذاته ، جَامِعٌ لكل أسمائه وصفاته . والألوهية تعني توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده ، واليقين بأنه المتصرف في أفعال العباد ، المقدر لهم أرزاقهم . وهذا الجانب إنما يخص المؤمن. والرب هو المنعم على الخلق بنعمه المتعددة ، وآلائه الظاهرة والباطنة . وهذا لا يختص به أحد إلا الله وحده سبحانه وتعالى.

ومن معاني الرب : الصاحب ، والسيد من البشر . ألم تقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨) ، يعني – والله أعلم – ارجعي إلى صاحبك .

وفي معنى السيد من البشر يقول الله عز وجل في سورة يوسف : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة يوسف : ٢٣) ، أي عزيز مصر (٢٦) .

ألا ترى أن فرعون رغم تعاليه وتجبره ، لم يطلق على نفسه لفظ (الله) ، وإنما قال تعالى : ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ (سورة النازعات : ٢٤) ، على اختلاف معاني (الرب) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة القصص : ٣٨) ، على اختلاف

٢٥) هذا على سبيل المثال ، لا الحصر . وقد ربط مولانا عز وجل بين الإيمان وعمل الصالحات في واحد وخمسين موضعا من آيات الذكر الحكيم . فعليك بالنظر والتأمل .

٢٦) يُنظر في الموضعين ، ابن منظور: لسان العرب ، مادة (ربب) .

ما يعنيه لفظ (إله) (٢٧) . أما لفظ الجلالة (الله) ، فلم يدع مدع على نفسه أو على غيره أنه (الله) ، فسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد .

إذن عليك أن تتأمل ، أن من يفرد الله بالعبادة ، هو الذي سيفتتح كل عمل نظري أو عملي بـ(بسم الله) ، وهو الذي يوقن ، بل ويدرك ويتلذذ برحمة الله له في الدنيا والآخرة، وهو الذي يحمد الله ويشكره على نعمائه . وهو الذي أنعم الله عليه بالتعرف على صفات الألوهية (الله) .

أما من لم يعبد الله، ولم يفرده بالوحدانية ، فهذا ليس له حظ من صفات الألوهية، بل يتنعم في صفات الربوبية ؛ الرزق والصحة والعمل ، وغيرها مما يخص متاع الحياة الدنيا . لذا عليك أن تتامل إشعاعات لفظ (رب) ، الذي شمل غير الموحدين بالنعم . وللربوبية عطاءٌ ، مَنْ يتأمله يدرك فائدته لإعمار الأرض ؛ كيف كان الأمر لو خص الله الموحدين بنعمه وترك المشركين ؟ أكانت ستعمر الأرض ؟! لا . إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أنعم على غير الموحدين بهذه النعم ، التي لا تعد ولا تحصى ، ومع ذلك هم يفسدون في الأرض ، فما الحال لو منعهم ؟ فالحمد لله على أنه رب للعالمين ، كل العالمين ، مَنْ شاء ومَنْ أبى .

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

وهنا نعود إلى الرحمة وتجلياتها ، وفيوضاتها على صاحبة أم الكتاب . فإن قيل : قد ذُكِرت الرحمة في الآية الافتتاحية ، فما الداعي لذكرها هنا ؟ وهل تختلف مقاصدها (٢٨) ، رغم تقارب الآتين ؟ . قلتُ – والله أعلى وأعلم – أن ثمة لطيفتين : **الأولى** ، أن الرحمة قد ذُكرت في الجملة الافتتاحية (البسملة) ، إشارة منه سبحانه إلى أن من يبدأ باسمه قد حظي بقسط كبير من الرحمة ؛ إذ حُرِّر ممن سواه في بداية أعماله ؛ فلو تعدد المعبود ، فباسم مَن سيبدأ ؟ ومن ثم فإن التوجه في بداية الأعمال إلى اسم واحد ، والتعلق به دون غيره ، هو في حد ذاته رحمة .

والثانية : أن من يبدأ باسم الله لا يكون إلا مؤمنا ، ومن ثم فإن (الرحمن الرحيم) لا تنسحب إلا على المؤمن ، إذ يستبعد منها غير المؤمن الذي لا يبدأ باسم الله . ويعضد ذلك مجيء لفظ الجلالة (الله) مع الرحمن الرحيم في البسملة ؛ لأن غير المؤمن لا يؤمن بالله كما يؤمن به المؤمن . وإنما يؤمن بلفظ (الرب) ، الذي ورد في الآية الثانية ، والذي وُصِفَ بالرحمة في الآية الثالثة .

---

٢٧) كل معبود إله : تطلق على الله سبحانه وتعالى ، يقول مولانا عز وجل ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) البقرة : ١٣٣ ، وتطلق على غير الله سبحانه وتعالى . يقول الحق عز وجل : (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء : ٦٢ .

٢٨) والذكر الثاني للرحمة هنا ، لمن يعدُّ البسملة آية من الفاتحة ، كما هو موجود عند الشافعية مثلا .

و**الثالثة** : أن (الرحمن الرحيم) تأتي لاستعانة العبد برحمة الخالق جل وعلا ، في أن يعمه برحمته فيما يقوم به من عمل ، وأن يبارك برحمته في ثمار هذا العمل ، وأن يحسن برحمته خاتمته على أكمل وجه ؛ فالرحمة هنا خاصة ببدء العمل ، والسير فيه والانتهاء منه ، والتطلع إلى حلول البركة فيه .

وأما الرحمة في الآية الثالثة ، فهي ترتبط بحبلين :

الأول : الحمد في قوله (الحمد لله) ؛ فكون أن الحق –سبحانه وتعالى – طَهّر قلوب العباد من التوجه بالحمد والثناء إلا له ، إذ هو المنعم الأول الذي يستحق الحمد – حتى لو جاء المعروف من البشر ، فهو على سبيل المجاز ؛ لأن من وفق صاحب المعروف إلى إسدائه إنما هو الله ، ومن ثم فالله هو الأحق بالحمد في الأولى والآخرة – فقد رحمنا رحمة لا يشعر بها إلا من تخلص من ذل الاستعباد ، وأفرد الله بالوحدانية .

وفي دال (الحمد) لطيفة ، تتمثل في أن الحمد دائما وأبدا لا يصدر إلا عن مظهرين: النعمة أو الابتلاء . فإذا كانت النعمة ، فإن تجلي الرحمة فيها لا يحتاج إلى دليل أو برهان؛ ألا يعد اصطفاء الله لك بهذه النعمة أو تلك رحمة بك ؟! . وإذا كان هذا معلوما في جانب النعمة ، فكيف نفهم العلاقة بين الابتلاء والرحمة ؟ قلتُ : قد يبدو الابتلاء شرا في ظاهره، لكن إذا فهمه العبد فهما صحيحا ، وأدرك خيريته ، حمد الله عليه . ومن هنا أدركته رحمة الله — تعالى .

ومثالًا على هذا ، عندما يموت أحد الأحباب ، ينظر الحق –سبحانه وتعالى– ماذا تقول ، فإن حمدته واسترجعت ، يسأل ملائكته وهو أعلم : ماذا قال عبدي؟ قالوا : حمدك واسترجع . يقول : ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد . وفي العلاقة بين الابتلاء والصبر والرحمة .

يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة : ١٥٥ – ١٥٧) .

ويروى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ .

فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ.

فَيَقُولُ اللَّهُ : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ" (٢٩).

وإذا فهمنا ذلك، عرفنا أن الابتلاء من أوله إلى آخره رحمة بالمبتلَى؛ ابتداء بالاصطفاء ، فالإلهام بالصبر ، ثم علو المكانة والدرجة في الآخرة .

---

٢٩) سنن الترمذي ، كتاب (الجنائز) ، باب (فضل المصيبة إذا احتسب) ، برقم : ١٠٢١.

وعليه ، فسواء أكان الحمد عن نعمة أم ابتلاء ، فهو يمثل أعلى درجات الرحمة . علمنا الله جميعا ، وأنار بصائرنا ، وطهر قلوبنا .

ويتمثل الحبل **الثاني** ، في قوله (رب العالمين) ، فكون أن الحق سبحانه وتعالى ربا للعالمين كل العالمين ، يعد كل هذا من صميم رحمة الله بالخلق . ومن ثم فإن (الرحمن الرحيم) هنا ، جاءت نتيجة لهاتين النعمتين : الحمد والربوبية (٣٠) .

ولذا نرى – والله أعلم – أن (الرحمن الرحيم) هنا تنصرف إلى المسلمين وإلى غيرهم ؛ لارتباطها بدال (الرب) الذي يتداول عند غير المسلمين . ومن ثم فإن هؤلاء لا يعيشون بصفات الألوهية ، لكنهم يحيون بصفات الربوبية ، التي من أهمها الإنعام على الخلق كل الخلق ، سواء أقر غير المسلمين بها ، أم لم يقروا .

وعلى هذا النحو عمت الرحمة الدلالة ، ليس في هذه المنطقة فحسب ، بل في جنبات أم الكتاب ، بل في القرآن الكريم كله ، كما سنبين – إن شاء الله – في موضعه . ومن الملحوظ أن تنوع الصيغ بين (فعلان – فعيل) يدل على طلاقة اتصاف الباري بهذه الصفات وتلك الأسماء ، التي يمثلها مفهوم (الرحمة) هنا (٣١) .

---

٣٠) يشم من كلام الطبري في تفسيره ، أنه يميل إلى أن البسملة لا تعد آية من سورة الفاتحة ، توافقا مع المذهب الحنفي ، وإلا حدث التكرار . وكذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير، لذا لم يتعرض الأول منهما لتفسير (الرحمن الرحيم) الثانية ، لكونه قد أبان عنها في الأولى ، الخاصة بالبسملة . ولم يتعرض الثاني لتفسير (الرحمن الرحيم) الأولى ، بينما تناولها في (الرحمن الرحيم) الثانية . ولكن ما الرأي ، لو كانت البسملة آية من سورة الفاتحة ، كما هو موجود في المذهب الشافعي ، وأن آيات سورة الفاتحة تعد سبعا بما فيها البسملة . وفق قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (سورة الحجر :٨٧) ؟ وقد تبين – بفضل الله تبارك وتعالى وحوله وقوته – أنه لا يوجد ثمة تكرار ، حتى مع احتساب البسملة آية من سورة الفاتحة ، فالرحمن الرحيم الأولى ، تختلف مقاصدها ومراميها عن الثانية . ومن ثم ينبغي علينا ، أن نؤمن بتعدد الدلالات واتساعها وتنوعها ، بالغوص للتفتيش عن المعاني التحتية والجواهر التي تكمن فيها ، بعيدا عن مقولة التكرار ؛ فوقوع التكرار في القرآن الكريم ، حتى وإن بدا على المستوى الشكلي ، في تشابه الألفاظ والجمل، فإنه لا يمكن أن يحدث على المستوى المعنوي ؛ فكل صياغة لغوية تعالج مسألة معنوية ، تختلف عن الأخرى . وإلا ماذا نقول مثلا عن بعض الصيغ اللغوية المتشابهة ، التي ترد في أكثر من موضع ، بثنايا القرآن الكريم في تناول قصة سيدنا موسى عليه السلام ومعالجتها ؟ .

٣١) سبق أن تحدثت عن الصيغ الاشتقاقية ، في جانب استعمالها مع المولى عز وجل . أما تقديم الرحمن على الرحيم ؛ فلأن وزن الرحيم (الفعيل) من الأوزان التي يمكن إطلاقها على من اتصف بالرحمة من البشر ، تقول هذا رحيم ، لكن لا يمكن إطلاق الوزن الأول (فعلان) إلا على الله جل وعلا . ومن هنا جاء تقديم الأصل (الرحمن) ، الذي يستمد منه الفرع (الرحيم) ؛ فرحمة البشر بعضهم ببعض مستمدة من رحمة الحق سبحانه وتعالى بخلقه .

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قلنا من قبل : إن الوحدانية والرحمة هما المسيطران على صاحبة السبع المثاني . فإن قلتَ : ما العلاقة بين قوله ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والوحدانية والرحمة (٣٢) ؟ قلتُ لك : إذا تأملت قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، وجدته إجابة عن سؤاله تعالى: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (سورة غافر:١٦) ، وتتمة الآية في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . فالله الذي ملك الدنيا بما فيها ومن فيها ، هو هو وحده ، وليس غيره الذي يملك الآخرة . ألا ترى معي أن هذه هي قمة الوحدانية ؟!. فالله هو من خلق ، وهو من أعطى ، وهو من اضطلع على أفعال العباد، وهو من يميت ، وهو من يبعث ، وهو من يحاسب ، وهو من يملك يوم القيامة ، أي هو من بيده كل شيء في الدنيا والآخرة .

ونعود إلى (الحمد) ، فالحمد لله على هذه الوحدانية ، التي استَبْعدت كل ما يُعبد من دون الله ، وجعلتِ الأمر كله لله ، في الدنيا وفي الآخرة . كيف يكون لو كان الحال غير هذا ؛ إله للدنيا وإله للآخرة ؟! فالوحدانية نعمة ومنة وعطاء ، لا يتلذذ بها إلا من ذاق طعمها ، بإفراد العبادة لله تعالى ، بالإخلاص وعدم الرياء في السر والعلن . الوحدانية هي التي حررت الإنسان من التشتت ، والتمزق ، والتفتت مما كان يُعبد من دون الله . ألا توافقني الرأي أن الوحدانية هي التي صدمت عقول العرب ، وهـم المخاطَبون الأوئل بهذا التنزيل الإلهي ، ألم تثر حفيظتهم ، ألم تحيرهم ؟ فالحمد لله على تجلي وحدانيته في امتلاكه ليوم الدين .

فإن قلتَ : إذا كان ذلك كذلك ، فما العلاقة بين قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والرحمة ؟ قلتُ : إن وحدانية الله جل وعلا ، في امتلاكه ليوم الدين ، تعد في حد ذاتها رحمة ؛ فالرحيم لم يخلق الإنسان ويرزقه ، ويمن عليه بكثير عطائه ، ثم يوكل أمره في الآخرة إلى غيره ، أتدري لماذا ؟ لتعمه رحمته في الآخرة ، كما عمته في الدنيا (٣٣) .

فإن قلتَ : إذا كان المراد بيوم الدين : يوم القيامة والحساب والفصل والواقعة والصاخة والطامة والحاقة والتغابن والجمع والقارعة ...إلى غير ذلك من الأسماء التي وردت في ثنايا القرآن الكريم ، فلماذا لم يأت بدال من تلك الدوال هنا ؟ قلتُ : **لعلتين** :

---

٣٢) قيل كلام كثير حول لفظ (مالك) ، فهناك قراءة (ملك) . وحول هذا ، يفضل الرجوع إلى القراءات المختلفة ، في مصادرها المتعددة .

٣٣) ورحمة الله في الآخرة ، لا تعم إلا المؤمنين ، ولذا قيل رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا . أي أن رحمة الله إذا لحقت غير المؤمنين في الدنيا ، فإنها لا تلحقهم في الآخرة . ورحمة الله لغير المؤمنين في الدنيا بكثير عطاء وفضل مَنٍّ ، تندرج تحت صفات الربوبية .

الأولى : أن للفظ الدين معاني كثيرة في اللغة ؛ منها الجزاء والحساب . وهنا نقرأ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور:٢٥) ، وقوله تعالى : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (سورة الصفات : ٥٣) .

ومنها الملة ، أي المعنى الشائع للفظ الدين . وهنا يقول تعالى : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام : ١٦١) . وكذلك قوله :﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سورة البينة :٥) . وغير تلك المواضع كثير .

ومنها الحكم والقضاء . يقول تعالى : ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة يوسف :٧٦) .

وإذا جئنا إلى المعنى الأول المتمثل في الجزاء والحساب ، فإن مولانا جل وعلا ساق لفظ (الدين) ؛ ليبين لنا الغاية والهدف والمراد من هذا اليوم . فإذا كان هذا اليوم ذاته بما يحفه من أهوال ، يعد الوسيلة التي تُبعثُ بها الخلائق ، فإن الهدف من هذا البعث هو الحساب والجزاء . ومن ثم يكون ذكر لفظ (الدين) بدلا من ذكر كل تلك الدوال ، من باب تقديم الهدف والغاية على الوسيلة .

أما المعنى الثاني المتمثل في الملة ، ففيه **لمحتان** : بيان الأولى ، أنه لما وقع الخلاف والجدل بين المشركين وأهل الكتاب من ناحية ، والمؤمنين الموحدين من ناحية أخرى حول الدين القيّم ، فكان لابد أن يأتي يوم ، يفصل الله فيه بين الخلائق ؛ ليعرف أهل الباطل— إن كانوا لا يعرفون — أنهم على الباطل ، ومن ثم تحدث عملية التبرؤ . وهنا نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة الحج:١٧) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الدخان:٤٠) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (سورة النبأ :١٧) .

وبيان اللمحة الثانية ، أن هذا اليوم يمثل الانتصار الأعلى لدين الإسلام ، الذي قال الله عنه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة آل عمران :١٩) . واقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (سورة غافر:٥١).

أما المعنى الثالث المتمثل في الحكم والقضاء ، فهو من الوضوح بمكان ؛ إذ يمثل هذا اليوم الحكم بين الخلائق ، والقضاء عليهم : مؤمنهم وكافرهم ، محسنهم ومسيئهم ، مظلومهم وظالمهم ...إلخ . وكل هذه الأمور تخص العبادة لله عز وجل . واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة الزمر : ٣) .

وإجمالا ، فإن وجاهة العلة الأولى تتمثل في أن لفظ (الدين) يعد المظروف الوحيد لهذا الظرف / اليوم ، والغاية المثلى لكل تلك المسميات . لذا ذُكِرَ دونها .

والعلة الثانية : هو أنه لما كان يوم الدين لا يُتوصل إليه إلا بمراحل مترتبة ، يمر بها بنو البشر ، بداية من النفخ في الصور حتى العرض على الله ، وكانت سورة الفاتحة تمثل مجمل القرآن الكريم ، ذُكِرَ لفظ (الدين) هنا ؛ ليُفَصَّلَ داخل آيات القرآن الكريم ، من خلال مراحله التي تتوافق مع أسمائها المتنوعة . فالزلزلة تصف مشهدا معينا ، والواقعة مشهدا ثانيا ، والطامة مشهدا ثالثا ... إلى آخره . وبتجميع تلك المشاهد نُعطى يوم الدين . ومن ثم ، فإن علاقة لفظ (الدين) بالأسماء الأخرى ، تندرج تحت الإجمال قبل التفصيل . وهي العلاقة نفسها التي تربط سورة أم الكتاب بالقرآن الكريم كله .

أتأملت هذا الإيجاز ، واستنشقت هذا الإعجاز ؟ والأروع والأبهى والأجمل في كل هذا، أن من اتصف بالوحدانية والرحمة هو هو مالك هذا اليوم، بكل أحداثة. فأيُّ حبور، وأية غبطة ، وأي انشراح ، وأية فرحة وسعادة تغمر المؤمن في هذا المشهد العجيب ، والموقف الرهيب ، عندما يرى خالقه الذي عبده ، وانقاد لطاعته ، وكبح جماح نفسه في رضاه ، هو من يحكم بين الخلائق ؟؟!!.أفهمتَ الآن العلل وراء ذكر دال (الدين) ؟ علمنا الله وإياك ، ورزقنا حسن العلم وحسن العمل .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وفي هذه الآية تتجلى أروع شارات الوحدانية ؛ فيا من يُفتتح باسمه كل شيء ، ويا من يستحق الحمد لأنه أهل له ، ويا من كتب على نفسه أنه رب للعالمين كل العالمين ، فلم يطرد أحدًا من مأوى ربوبيته ، ولم يحرم كافرًا من نِعَمِ قيوميته . يا من تتجلى رحمته على خلقه ، في كل شاردة وواردة ، وكل ساكنة ومتحركة ، وكل ظاهرة وباطنة . يا من ملك يوم الدين ، فلم يوكل أمر خلقه لأحد إلا له ، إياك أنت وحدك لا غيرك نعبد ، وإليك نتوجه ونضرع ، وعليك أنت وحدك نتوكل ، وبك أنت وحدك نؤمن ، ولرضاك أنت وحدك نطلب .

أتأملتَ هذا النسج اللغوي ، والبناء المحكم ، والتنزيل الكامل الأكمل ، والبيان الناصع المشرق ؟ أتأملتَ المفصل والمجمل ، وهُديتَ إلى الغاية والسر من المقدم والمؤخر؟ . ولما تعددت الآلاء، وكثرت السمات والصفات ، وتنوعت بين الوحدانية والرحمة والربوبية ، والملكية ليوم الدين ، لما كان ذلك كذلك ، جاء لفظ (نعبد) شاملًا وجامعًا ، مكينًا في مكانه ، غير ناب ولا شاذ . هذه هي الوشائج الوثيقة التي تربط العبادة (إياك نعبد) بالوحدانية .

فإن قلتَ : عرفنا العلاقة بين العبادة والوحدانية ، فما العلاقة بين الاستعانة في (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) والوحدانية ؟ رُدّ عليك بسؤال مثله : كيف يكون الحال لو تعدد المستعان به ؟ إله للرزق ، وإله للحياة ، وإله للموت ، وإله للإنجاب ، وإله للريح ، وغيره؟ فإذا استعنت بهذا – على سبيل المجاز– أعانك ، وإذا استعنت بذاك لم يعنك ، إذا دعوت هذا أجابك ، وإذا دعوت هذا لم يجبك ، فهذا يتعارض مع ذاك . وبالجملة كيف يكون الحال لو تعددت الآلهة ، كما كان عند العرب في الجاهلية ؟ أليس مِنَ الأولى والأجدر والأنفع لبني البشر ، التوحد في التوجه للطلب والاستعانة واللجوء . أليس مِنَ الأصلح والأوفق ، أن يكون مَنْ يخلق هو من يرزق ، ومن يحي هو من يميت ، ومن يُمرض هو من يشفي ، ومن يُسأل هو من يعطي ، ومن يبعث هو من يحاسب ؟! .

إن الوحدانية هي روح الاستعانة، وقِبْلتُها التي لا توجد غيرها قِبْلة، ومرفأها التي ترسو عليه سفن الأفئدة ، وشراع الألسنة ؟ . ألم يوصِ النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا عبد الله بن عباس قائلا : "يَا غُلَامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ" (٣٤) .

فإن قيل : ما العلاقة بين قوله تعالى :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والرحمة ؟ . قيل : إن الحق سبحانه وتعالى ، تكرَّم على خلقه ومنَّ عليهم ، وبعث لهم رسلًا وأنبياء ؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فيفردونه بالعبادة ، ويخصونه بالتوحيد ، بعد أن خاضوا أزمنة في غياهب الشرك، وضلال الكفر ، والترنح بين الآلهة المصنوعة تارة ، وكهنة المعبد تارة أخرى ، والنجوم والكواكب تارة ثالثة . وبذا وحَّد قبلتهم ، ونقَّى قلوبهم ، وحرر عقولهم من الاستعباد ، ولملم شتاتهم ، وجعل الاستعانة به من أسس العبادة وأزهى ثمارها . وعليه ، يكون تحرير الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، والتوجه والاستعانة به هو وحده ، لا غيره، لهو قمة الرحمة بالخلق .

فإن قيل : الاستعانة فرع العبادة ، فلماذا أفردها بالذكر ، وهي داخلة تحت عباءة العبادة ؟ قلنا : لما كانت الهداية هي ذروة التمني لدى الخلق ، وهي مهوى كل إنسان ذي فطرة سليمة ، ولما كانت النفس البشرية – في معظم أحوالها – تأبى الهداية وتنفر منها ، رغبة في التلذذ بالمتاع الزائل في الحياة الدنيا ، كانت الهداية من الأمور الشاقة على النفس . فلما كان ذلك كذلك ، كان لزاما على الإنسان الطالب للهداية ، أن يشتمل برداء الاستعانة ، وأن يحتمي بطوق التذلل ، والتضرع إلى الله عز وجل .

إذن أُفردت الاستعانة من بين أعمال العبادة ومكوناتها ؛ لصعوبة الهداية على النفس . ماذا يحدث عندما يمل شخص ما من حياة الضلال ، والتمرغ في الذنوب ، ويرغب في التوبة إلى الله ؟ أتطاوعه نفسه بسهولة ؟ كلا . إن عقله وقلبه يريدان أن ينعما بالتقرب إلى الله عز وجل ، والنفس تأبى . عندما يريد المؤمن أن يستيقظ لصلاة

٣٤ سنن الترمذي ، كتاب (الزهد) ، باب (٥٩) ، برقم : ٢٥١٦ .

الفجر مثلا ، ما مدى الصعوبة – وبخاصة في بداية الهداية – التي يُجابَه بها من قِبَلِ نفسه ؟ . وعليه ، فلابد أن يتسلح المرء بسلاح الاستعانة بالله ، على منغصات حياته ونفسه ، وما يحول بينه وبين الهداية . لذا جاء الإفراد ، والله أعلى وأعلم .

وعليك أن تتأمل هذه اللطيفة ، المتمثلة في ارتباط العبادة بالملكية (مالك يوم الدين ، لذا نعبدك) ، وارتباط الهداية بالاستعانة (إياك نستعين ؛ لهدايتنا إلى صراطك المستقيم) .

أتأملت هذه الإشعاعات التي تنبعث يمينًا ويسارًا ، بين دوال سورة الفاتحة ، فتلقي بظلالها الإعجازية ، محدثة ضربًا من التلاحم اللغوي البديع ، الذي يضع الدلالة القرآنية في أبهى صورها ؟!.

فإن قيل : لم قدم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد – نستعين) ؟ قيل : للمحات مهمة :

أولها : إفادة الاختصاص والاهتمام ، كما قال بذلك معظم المفسرين .

و**ثانيها** : الترتيب الذي يناسب السياق ؛ فالله – تعالى – هو المذكور أولًا ، بداية من البسملة حتى هذه الآية .

و**ثالثها** : أنه عندما يوضع ذكر الله – تعالى – بجانب ذكر البشر ، فلابد أن يأتي ذكر الله أولًا ؛ لكونه المعبود ثم يأتي ذكر العابد ؛ لتتحرك الدلالة / المتمثلة هنا في العبادة والاستعانة من أسفل ، يعني : بني البشر . إلى الأعلى ، يعني : الله عز وجل (٣٥).

فإن قيل : ما علة الجمع في نعبد ونستعين ؟ قيل : إن الفاتحة لما كانت من شروط إتمام الصلاة ، بخلاف بقية سور القرآن الكريم ، كان من الطبيعي أن يقرأها كل مسلم ، متضرعا بها في صلاته إلى ربه تعالى ، سواء أكان منفردًا أم في جماعة . ومن ثم وردت صيغة الجمع . وكأن كل المسلمين يقرون بالعبادة لخالقهم والاستعانة به في وقت واحد . وإذا تأملت فروق التوقيت على مستوى البسيطة كلها ، ألفيت أنه ما من مكان ولا زمان ، إلا ويرفع فيه الآذان وتقام فيه الصلاة ، على نحو متتابع معجز .

ومن اللطائف، أن صيغة الجمع هنا تخص المفرد كذلك، فعندما نقول: إياك نعبد، تعني من جهة القائل (إياك أعبد) ؛ فخاص القرآن عام وعامه خاص . وعندما تقرأ في القرآن الكريم مثلًا : يأيها الذين آمنوا ، ألا تعلم أن هذا النداء يخص كل مسلم على حدة ، وفي الوقت نفسه يخص كل المسلمين ؟! فهمنا الله وإياك (٣٦).

فإن سأل : لماذا التحف الفعلان (نعبد- نستعين) برداء المضارع ؟ قيل لك : لأن المضارع يحمل دلالة الاستمرار والدوام ، أي الحاضر والمستقبل ، وهو الذي تتم به الفائدة هنا . فإن قيل : ما القول في الذين يرتدُّون عن الإسلام في بعض العصور ، أو الذين يستعينون بغير الله، مع أنهم نطقوا بالعبادة والاستعانة، على معنى

٣٥) قال بها القرطبي ، وهنا زيادة .

٣٦) وفي تكرار (إياك) انظر القرطبي وغيره .

الحاضر والمستقبل؟ قيل : إن المنهج الإلهي وُضِعَ على الأصل ، أي ما يفترض أن يكون ، وما يتناسب مع الفطرة السليمة ، وما شذ عن ذلك ، فهو خارج هذا المنهج .

كما أن هذا المنهج هدية من الله للجمع قبل الفرد ؛ فالتزام الجماعة به هو الذي يعمر الأرض . ولما كان الارتداد – وهو فردي بطبيعة الحال – لا يقع إلا في القليل النادر، فإن تلبس الفعلين بالمضارع ، جاء في مكانه المكين ، على الأصل ، لا الشاذ والنابي .

ألا ترى أنك عندما تقرأ قول الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة النور : ٢٦) ، وتجد ما يخالف هذا في الواقع المعيش من الصور المختلفة للزواج غير الناجح ، تدرك أن الخطأ وقع من مخالفة المخاطَب لأوامر الله ، وعدم فهم مراده ، بعدم الأخذ بالأسباب في الوصول إلى تحقيق مراد الله في الحياة العملية ؟ ! .

وهنا وقفة متمثلة في أن دوام العبادة والاستعانة، نعمة لا يحصلها إلا كل مخلص، وكم هي بعيدة عن المنافق ! لذا الإخلاص الإخلاص ، وإياك والوقوع في براثن الفتن ، أو الاغترار بإخلاصك ، فقديمًا قالوا : من ظن أنه مخلص ، فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص . ويقول صلى الله عليه وسلم :"بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم . يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا . أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا . يبيع دينه بعرض من الدنيا"(٣٧).

أهم نتائج البحث :

وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية :

أولا : أن هذا البحث استطاع أن يربط – من خلال هذه القراءة التأويلية – بين المضامين التي حملت بها أم الكتاب وبين الواقع الحديث الذي نعايشه . وفي رأيي أن هذا المسلك يمثل أفضل المسالك في أي قراءة لكتاب الله عز وجل ؛ فلا ينبغي على القارئ المؤول أن يفصل بين قراءته والعصر الذي يحياه .

وثانيًا : قد أثبت البحث أنه لا غضاضة في أن يُستعان في أي تفسير أو تأويل للقرآن الكريم بالمناهج اللغوية الحديثة ، ما دامت تصلح لإبراز المعنى القرآني في غير شطط أو خروج عن العرف اللغوي . وهذا ما بدا جليا في الاستعانة بالمقاطع الصوتية ؛ لإظهار الإعجاز القرآني في هذا الجانب . وكذلك ما طرحه هذا التأويل من الربط الدلالي بين الآية الأولى في أم الكتاب (البسملة) وبين مضامين السورة بأكملها . ثم إظهار العلاقة الترابطية بين آية البسملة والقرآن الكريم كله . وهذا هو ما يتبناه المنهج البنيوي في ربط الأجزاء بالكليات .

٣٧) صحيح مسلم ،كتاب (الإيمان) ، باب (الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن) ، برقم : ١١٨.

وثالثًا: أن القارئ المتلقي استطاع في هذا التأويل أن يجمع بين تاريخ التلقي الأول لسورة الفاتحة – وبخاصة في بناء البسملة على مضمون الرحمة – والتلقي المعاصر لها ، وذلك بربط الدلالة بالواقع المعيش . وهذا المبدأ (الربط بين الجمال والتاريخ) هو أحد المبادئ التي تأسست عليها نظرية التلقي .

ورابعًا : أنه لا ينبغي لمن يتصدى لتأويل كتاب الله عز وجل دخول هذا المعترك ، إلَّا بالتسلح بآليات تمكنه من السباحة في هذا الخضم العظيم ، ولا سيما اللغة بكل خصائصها ، وما يتسنى له من مناهج قرائية تسعفه على إظهار الدلالة على نحو واضح.

أهم المصادر والمراجع

١- البخاري : الصحيح ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثالثة ،١٤١١ هـ - ١٩٩٠م ، ومحمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة السلفية .

٢- الترمذي : السنن ، تعليق : محمد ناصر الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، بدون تاريخ .

٣- أبو داود : السنن ، تحقيق وضبط : شعيب الأرنؤوط ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

٤- الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

٥- الزمخشري : الكشاف ، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان – الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٦- السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : تحقيق : شعيب الإرنؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م .

٧- الطبري : جامع البيان في تأويل آي القرآن ، هذبه وحققه وضبط نصه ، وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف ، وعصام فارس الحرستاني ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م .

٨- ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر- تونس ، ١٨٨٤م .

٩- عبيد بن الأبرص ، ديوانه ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م .

١٠- ابن ماجه : السنن ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية .

١١- النسائي : السنن ، قدم له الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م .

١٢- مسلم : الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩١م .

١٣- ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف .